تاريخ مدينة

متى سمعان بوري ود. يوسف احمد شبل، **عكا: تراث وذكريات**، بيروت: دار الحمراء، ١٩٩٢

اذا كانت الدراسات التاريخية والجغرافية والتراثية بالغة الاهمية في حياة الامم والشعوب، فان هذا الامر أكثر أهمية بالنسبة لفلسطين وتاريخها وجغرافيتها وتراثها الشعبي، ذلك ان الغزو الاستعماري الصهيوني لها كان مختلفاً، الى حدّ بعيد، عن أي غزو استعماري في العالم، ماضياً وحاضراً. فالغزو الاستعماري الغربي اقتصر على التسلّط ونهب الثروات والتحكّم في الممرات الاستراتيجية دون الاستيطان واقتلاع السكان وتبديل المعالم الحضارية والتاريخية والتراثية، وهذا ما أقدمت الصهيونية على فعله ولا تزال، وذهبت الى أبعد من ذلك في عملية «تهويد» الارض وتزوير التاريخ والتراث والمعالم الحضارية مدعية بأن ذلك يرقى الى القبائل العبرية القديمة، بغية اضفاء «شرعية» باطلة في الادعاء «بالحق التاريخي».

كان لا بدّ من التصدي لهذا التزييف ومواجهته ودحض مزاعمه بإبراز الحقائق الدامغة عن تاريخ فلسطين وحضارتها ودوام عروبتها بالرغم من محاولات التهويد بطمس هويتها الوطنية والعربية. ومن الجدير بالاهمية ان تتصدّى لهذه المحاولات الاجيال الفلسطينية المقتلعة والمتبقية التي نشأت على أرض الوطن، وعاينت، شخصياً، معالمه الحضارية، بتسطير هذه المعالم كي تبقى، من جهة، محفورة في وجدان الاجيال الفلسطينية والعربية الطالعة، ومن جهة ثانية، فان الانتاج في هذا المضمار من شأنه فضح الادعاءات اليهودية وتعرية تزييفها. وها هي عكا ـ من خلال كتاب المؤلفين ـ بعروبتها وتاريخها ومعالمها الحضارية والتراثية دليل ساطع على الافتراءات اليهودية وبرهان قاطع على التزييف. وممّا يزيد الكتاب أهمية معاينة مؤلفيه الشخصية لكل تلك المعالم مضافاً اليها معلومات المصادر، وبذلك تبقى صورة المدينة العريقة حيّة في وجدان الشعب الفلسطيني، وتبقى، أيضاً، صورة التشويه الذي الحقته بها المعاول الصهيونية بعد ان دفع ابناؤها ضريبة الدم دفاعاً عن عروبتها.

تصدّر الكتاب، بفصوله السبعة وملاحقه، الاهداء: «الى شهداء عكا الذين سقطوا على ترابها دفاعاً عن عروبتها»، فمقدمة تشتمل على الكفاح الفلسطيني «من أجل أرض وهوية»، كما تشتمل على بريق أمل «بأن رحلة العذاب هذه قد آن لها ان تشارف على نهايتها». وانتهى بهذا البريق في أبيات لنزار قباني، ومحمود درويش، ومقطع لغسان كنفاني.

استعرض المؤلفان، في الفصل الاول، «تاريخ مدينة عكا» منذ أقدم العصور حتى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين وقيام «دولة اسرائيل». وتتبيّن، منذ البداية، حقيقتان: ان عكا مدينة عربية ـ كنعانية قبل الغزو العبراني العابر لفلسطين، وان هذا الغزو، في أوج امتداده، لم يتمكّن من الوصول اليها والى بقية الساحل الفلسطيني، وانه انحصر في المناطق الجبلية الداخلية. وعرج المؤلفان بالتسلسل على الغزوات التي تعرّضت لها فلسطين على يد الفراعنة، والاشوريين، فالفرس، واليونان، والرومان بعرض موجز تضمّن المظاهر العمرانية والحضارية لمدينة عكا. واستعرضا بعد ذلك، ما حققته المدينة من ازدهار في الزراعة والصناعة والتجارة بعد الفتح الاسلامي لها، ومن ثم وقوعها تحت الاحتلال الصليبي وتحريرها منه، وخضوعها بعد ذلك لحكم المماليك ومن ثم لحكم الاتراك. وخلال الحكم الاخير، خضعت المدينة فترة من الزمن لحكم الامير فخرالدين المعني، ومن ثم لظاهر العمر الفلسطيني الى ان تمكّن الاتراك من استعادة السيطرة عليها وتنصيب أحمد باشا الجزار